

أدب الرحلة جسر للتواصل الحضاري والتعدد الثقافي، قراءة في رحلات

القدامي والمحدثين.

أ. صالح جديد

جامعة الطارف

الملخص:

تمثل الرحلة نصا أدبيا بطابع سياسي واجتماعي واقتصادي وسياحي وثقافي بامتياز؛ ذلك لما تحمله من خصوصيات ومميزات كل تلك المظاهر، كما أنها تمثل حلقة وصل بين الشعوب والأمم والحضارات، ونظرا لأهميتها تلك فقد اعتنى بها الأدباء والفلاسفة والساسة وعلماء الاجتماع والاقتصاد وتنافسوا في الكتابة والتأليف فيها، ونشر ما كتبه السلف سواء من العرب أو الغرب. ولكي لا يكون كلامنا مجرد مقولات نظرية فإننا حاولنا قراءة رحلات العرب القدامي مثل ابن بطوطة وابن جبير، ورحلات العرب المحدثين مثل الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية للفاسي، ورحلة العالم الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس.

Résumé: Le voyage représente un texte littéraire à caractère politique, social, économique, politique et de l'excellence culturelle; qu'en raison de ses spécificités et caractéristiques intrinsèques de toutes ces apparences, car ils représentent un lien entre les peuples, les nations et les civilisations, et étant donné l'importance qu'il a pris soin de les écrivains, philosophes, hommes politiques et les sociologues, l'économie et participé à l'écriture et création où, et publier ce qu'il a écrit prédécesseur si Arabes ou l'Ouest. Pour que nos mots ne sera pas seulement une théorie des catégories, nous avons essayé de lire les anciens voyages Arabes comme Ibn Battuta et Ibn Jubair, voyages modernistes arabes tels que le voyage à Alapreezah Diar El Fassi anglais et scientifique allemand voyage Habnstraat à l'Algérie, la Tunisie et Tripoli.

الرحلة العرب وسفر الخروج من المحلي إلى العالمي:

تعد الرحلة من أبرز مظاهر التواصل الاجتماعي والإنساني قديما وحديثا؛ وذلك لما تحققه من ترابط ومد للحسور بين الأفراد على مستوى العلاقات الفردية والشخصية، وعلى بين الشعوب والأمم على مستوى العلاقات الجماعية والحضارية، ونظرا لهذه الأهمية وإدراكا من العرب القدامي والمحدثين لها جاءت رحلاتهم شرقا وغربا شمالا وجنوبا متنوعة ومتعددة الأهداف والأشكال، محققة لهم بذلك الخروج من دائرة المحلي – العربي – إلى دائرة العالمي – الغربي – محدثة فيهم وعلى الأقل في بعضهم الدهشة والغربة والصدمة لما اكتشفوه من عادات وتقاليد وعلوم آداب ومعارف عند غيرهم من الأمم، فكانت بذلك الرحلة واحدة من الأسباب المحدثة للمراجعة والوقوف مع الذات العربية وإعادة النظر في الكثير من القضايا والأمور التي كانت تعد من المسلمات غير القابلة للنقاش أو حتى للطرح والعرض.

وتختلف وتعدد أسباب الرحلة من فرد لآخر، ولكن في غالب الأمر تكون دوافع الرحلة بسبب ديني كالحج سواء للمسلمين أو المسيحيين أو اليهود أو غيرهم من الشعوب المختلفة الديانات طلبا للتوبة والمغفرة " كأن يرتحل للحج إلى الأماكن المقدسة تلبية لنداء الرحمان وتوبة، وتطهيرا للنفس من دنس الذنوب، وعهدا للسير على الصراط المستقيم وأملا في المغفرة، ومن قبيل ذلك التبشير بالدين أو زيارة المقابر"⁽¹⁾ هكذا هي الرحلة الدينية تشوقا للمكان المحقق للراحة النفسية والروحية سواء كان مسجدا، أو كنيسة أو ديرا، أو مقاما لولي صالح، إنه المكان الذي تحن إليه النفوس وتهوي إليه القلوب، وهذه الرحلة لا يقوم بها إلا من أيقن بأن نجاحه معلقة بما تعلق الجنين بالرحم، ومن الأسباب الدافعة للرحلة طلب العلم والمعرفة والحري وراء الحكمة، فنجد من رحل

تاركا دياره وأهله وماله وقصد ديارا غريبة عنه لتحقيق ما يفتقده من علوم ومعارف وحكم مستندا في ذلك على ما رواه الترمذي في سننه قول الرسول صلى الله عليه وسلم " الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها " (2)، والمقولة المشهورة اطلبوا العلم ولو بالصين، على اعتبار أن الصين أقصى الأرض فيما تحقق لهم من معرفة جغرافية في ذلك الزمان، ولازال الارتحال طلبا للعلم من أقوى الأسباب ماضيا وحاضرا، وإن تعددت واختلفت مصادره ووجهاته، ومن أمثال ذلك (الغزالي)،(طه حسين)،(الطهطاوي)...الخ. ومن الأسباب نجد كذلك السياحة التي تمثل عاملا للترفيه عن النفس وتجديد الطاقة والحيوية، والأخذ بمظاهر الجمال والبهجة، ومع السياحة يرتبط الاقتصاد والتجارة تنوعا للمكاسب والمداخل وعروض التجارة، وبالتجارة يرتبط سببا آخر ألا وهو العلاجي أو الصحي؛ حيث يرتحل الكثير من الناس طلبا للاستشفاء في غير بلدانهم إما لضعف أو لنقص في المؤسسات العلاجية أو الأدوية، أو لمناسبة أجواء تلك البلدان لخالتهم الصحية والنفسية كما هو الشأن مع الشاعر التونسي(أبو القاسم الشابي)عندما جاء إلى الجزائر طالبا للعلاج من مرض السل واستقر به المقام ببلدية(المشروحة) بولاية (سوق أهراس) بأقصى الشرق الجزائري.

ومن الدوافع كذلك نجد العامل السياسي وهذا بخاصة في العصر الحديث فنجد من يرتحل بحكم مقاومته، أو معارضته للنظام السياسي القائم أو بالحكم عليه بالمنفى، أو لتبادل الآراء السياسية في السلم والحرب، ومن كتب في هذا الشأن نجد(الأمير عبد القادر الجزائري).

ومهما يكن من الدوافع والأسباب فإن الرحلة تبقى من أهم المصادر المشككة للمعرفة والموتدة للعلاقات الإنسانية بين الشعوب، ومن هذا المنطلق تحرك العربي قديما وحديثا مسافرا تاركا المكان الذي ألفه ضاربا في أرجاء الأرض، خارجا من المكان الضيق المحلي مناشدا المكان الشاسع العالمي، محققا أحلامه وطموحاته مجددا لحياته، ألم يقل الإمام الشافعي قديما:

" سافر تجد عوضا عن تفارقه وانصب فإن لذيد العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب " (3)

أو قول المسعودي: " ليس من لزم جهة وطنه وقع بما نعى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من معدنه " (4)، وعن الرحلة وتحقيقها للعالمية والوحدة بين الشعوب كتب السامي قائلا: "... ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن الرحلة قد رسخت كل العوامل والمفاهيم التي بنيت عليها مسألة وحدة البشر على الأرض " (5)، فللرحلة إذن مهمة إنسانية وحضارية بغض النظر عن الفوائد الشخصية التي يجنيها الرحالة؛ فتحقق الرحلة التعارف الإنساني والتقارب الحضاري هذا على المستوى العام، أما على المستوى الخاص فإنها تصقل شخصية الرحالة وتكسبه معارف وثقافات جديدة، كما توسع من زوايا الرؤيا للكون واجتمع المحيط به، فيخترق بالرحلة المسافات ويعبر الحواجز النفسية والجغرافية منطلقا من عالمه المحلي المنتمي إليه ليحط بالرحال بعوالم أخرى أوسع وأشجع، فالرحلة سفر للخروج من المحلي إلى العالمي، سفر استجابة للرسالة السماوية والبيان القرآني ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (6) ففطرة التعارف وحب الالتقاء بالآخرين حيلة في الإنسان موروثه عن أبينا آدم عليه السلام، ولا يمكن أن نتصور وجود إنسان ما لم يرتحل يوما ما ولو عبر عالم الأحلام؛ ذلك لأن " الرحلة بهذا تعد حلقة رائعة ومثيرة من تلك المنظومة الإلهية، التي تشمل الكون وتوجه أنساقه البشرية والطبيعية لتحقيق المزيد من محاولات اكتشاف الذات الإنسانية، واختراق حاجز المسافات الطبيعية لاكتشاف الحياة على الأكوام المختلفة، وليس من شك أن الإنسان أراد أم لم يرد_ وهو يسعى إلى العمل استجابة للحياة، فإنما يعمل لصالحها ويؤكد علو شأنها وينتصر لكل ما خلق الله من الخير والجمال " (7)، وبما أن الرحلة حلقة من النظام الإلهي، وناموس من نواميسه سبحانه وتعالى في الكون، فقد وجدنا للرحلة الفضل الكبير في تنقيف الناس وتغيير وجهات نظرهم في الكثير من الأمور التي لم تسمح لهم فرصة البقاء في أقطارهم الإطلاع عليها وعلى ما يغيرها أو يقدمها في صور أخرى متممة ومكملة لها.

ومن الصور الإيجابية للرحلة العربية أنها أسست للجغرافيا ليس العربية فقط وإنما العالمية، والتي بدورها حركت دواليب الاقتصاد والسياسة والاجتماع والأدب والثقافة، فتقرب الإنسان من أخيه الإنسان وصارت المسالك والممالك معهودة مألوفة مأمونة لرواد الأقطار حسب رغباتهم واهتماماتهم.

لقد بدأت الرحلة العربية منذ الجاهلية تخترق آفاق المحلي/ القبيلة/ ناشدة العالمية ولو بمفهومها المحدود آنذاك والمتمثل خارج المضارب وحدود القبيلة، إما غزوا أو تجارة أو ترحالا طلبا للكأ والماء... الخ، فهجروا مضاربهم " إلى أكناف المدن وإلى مواضع المياه الشحيحة، وقد تمتد سنوات الجفاف وتعم سائر الإقليم وعندئذ تضطر القبائل إلى هجر ديارها إلى أرض بعيدة تختارها دار إقامة إلى حين"⁸ فدون الشعراء رحلاتهم ورحلات أقوامهم في أشعارهم وفي المطالع الطلالية مثل: النابغة الذبياني في لاميته، والأعشى، وزهير بن أبي سلمى في معلقته، وامرؤ القيس، والشعراء الصعاليك، فمثل هؤلاء الشعراء وغيرهم أسسوا شعريا لما يمكن أن نسميه تيمة الرحلة في الشعر الجاهلي، وهي ضرورة ومهمة في بناء القصيدة الجاهلية، بل يعد عيبا ومنقصة لمن لم يذكر الرحلة التي قام بها، والمواطن التي حل بها، وهذا يكون بعد مقدمة طلالية، وتتلوها وصف الرحلة ثم يأتي الغرض المخصص للقصيدة هذه هي أهم محطات القصيدة العربية في الجاهلية، يقول ابن قتيبة: " فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام"⁹، فهذه هي إذن أبرز شروط الجودة والفضولة الشعرية في نقدنا العربي القديم.

ومع ظهور الإسلام والفتوحات في مشارق الأرض ومغاربها اتخذت الرحلة أبعادا أشمل وأوسع مما كانت عليه في الجاهلية، فقد ارتبطت أساسا بالدين (الحج، زيارة الأماكن المقدسة)، كما ارتبطت بطلب العلم والسعي وراء تحصيله أينما كان وعند من وجد، وكما ذكرنا سائفا من دوافع وأسباب الرحلة فإنها في المرحلة الإسلامية تنوعت وتعددت أكثر " في دوافعها التي بدأت تتعدد ومقصدها المتطور جدا، ثم في شكلها المتميز أدبيا وعلميا بصفتها عملا مدونا ذا طابع فكري_علمي_ بجوانبه التاريخية والجغرافية والاجتماعية والأدبية"¹⁰، ولكما تقدم الزمان واتسعت المدارك الإنسانية كلما كانت رغبته في الرحلة أكثر، حتى أننا أصبحنا في زمننا هذا نمارس الرحلة بمصطلح السياحة التي تأتي بعد أشهر من العمل المضني والجهد، فترى العائلات والأفراد يتحركون داخل الوطن أو خارجه سواء في العالم العربي أو الغربي لقضاء عطلتهم السنوية، محققين بذلك الرحلة من خلال المشاهد والمناظر والتجارب والمعارف التي يكتسبونها في سفرياتهم تلك.

فكلما سافر الإنسان كلما اكتشف ما لم يكن يدركه أو يعرفه، وكلما تنوعت أسفاره كلما اكتسب المهارات والمعارف والفنون التي يفتقدها في موطنه أو لا تسنح له الفرص لمعرفتها واكتسابها، فالسفر_الارتحال_ يحقق للفرد التحرر من قيود النفس الميالة للراحة والسكون، العازفة عن الحركة والانتقال، لما فيهما من جهد ومشقة، كما يحقق له التحرر من العادات والتقاليد المكتسبة بالإتباع لا بالتفكير والعقل، كما تحرره كذلك من النظرة والتفكير السطحيين الناتجين عن قلة الخبرة الآتية من التقوقع والتكلس على الذات أو على ما وجد عليه مجتمعه، وتكسبه بعد النظر وعمق التفكير لاحتكاكه بالمجتمعات غير المنتمية إليها، وبهذا تكون الرحلة فعلا قد حققت للإنسان عموما والعربي خصوصا النقلة من المحلية إلى العالمية.

وفي هذا الباب نجد أن رحلتي (ابن جبير، ورحلة ابن بطوطة) من أهم الرحلات العربية التي حققت الخروج من المحلي إلى العالمي، ولأن ما دوناه كثير وغزير فإننا حرصنا على تسجيل أهم النصوص التي حققت لنا وبوضوح ظاهرة الخروج من المحلي إلى العالمي. لقد أملى ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي) أخبار رحلاته تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) التي شرق فيها وغرب، والتي تجاوزت تسعة وعشرين عاما (29) على (محمد بن جزى الكلبي)، وهي التي اعتمدنا عليها في الحفر عميقا في ملامح الخروج من المحلي إلى العالمي، ويمكننا أن نحصنها في النماذج التالية:

أولا: نموذج الرحلة العربية العربية/ المغربية مشرقية: وهي تلك الرحلات التي قام بها داخل الأقطار العربية خارجا من طنجة المغربية قاصدا مكة المكرمة (الرحلة دينية، دافعها ديني الحج) مارا بكل من: تونس، مصر، بيت المقدس، دمشق، المدينة المنورة، مكة المكرمة، العراق، اليمن، الصومال، عمان.

ثانيا: نموذج الرحلة العربية الغربية/ المشرقية غربية: وهي تلك الرحلات التي قام بها من الأقطار العربية (المشرق) إلى الأقطار الغربية، ومن البلدان التي ذكره بلاد كسرى(فارس)،بلاد البلغار، أرض الظلمة، القسطنطينية، خوارزم، بلاد السند، بلاد الهند، بلاد الأفغان، بلاد الصين، بلاد سندابور وسيلان، بلاد جاوة، غرناطة.

ما يلاحظ على النموذجين أنهما دار بنسبة كبيرة جدا في الأقطار التي واقعة تحت دائرة الإسلام والمسلمين، وهي أقطار وعلى الرغم من اختلاف لغات أهلها إلا أن دائرة الإسلام وحدتهم في تطلعاتهم المستقبلية، وهذه الرغبة من بين محاسن الرحلات التي كشفتها وعملت على تعميقها.

الرحالة الغرب سحر الشرق وغواية السياسة: قد يتفق معنا الكثير من المهتمين بالرحلة والرحالة على أن أسبابها عند العرب والمسلمين اختلفت في كثير منها عن أسبابها عند الغرب، فالغرب ونعني به المجتمعات غير العربية وغير المسلمة والواقعة في أوروبا وأمريكا، وذلك بحكم التحولات التي حدثت بفعل الحروب الصليبية، والحركات التبشيرية والاستعمارية، والاستكشافات... الخ، فقد وجدنا أن الرحالة الغربي _ إضافة إلى الدوافع المشتركة مع العرب في حدوث الرحلة والتي ذكرناها سابقا _ تقف الدوافع الاستعمارية على رأسها، فالغرب سعى ويسعى من أجل تصدير تجاربه في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة إلى المجتمعات العربية دون مراعاة لخصوصيات تلك المجتمعات، وهو منطبق بسط النفوذ وإحكام الهيمنة على كل ما يقع تحت طائلته.

إذا كانت الرحلات الغربية الأولى لبلاد الشرق قد وقعت تحت سحره، والرغبة في معرفة هذا الآخر المختلف عنه لغة ودينا وسياسة ونظما اجتماعية وغيرها من محفزات الحركة والخروج من حدود الوطن وتجاوزها إلى داخل حدود أوطان عربية، فإنها سرعان ما تحولت تلك الدوافع إلى رغبة جامحة في الهيمنة على كل ما تقع عليه أرجلهم متسترين برداء حب الاطلاع والمعرفة والاستكشاف والتي لا تحققها إلا الرحلة؛ ولأن الرحلة تستوجب على صاحبها التحلي بأدائها وقواعدها، فإنها تستوجب على المرتحل إليهم التعامل معه على أنه إنسان يتحرك وفق مطلب ذاتي لا يقف وراءه نظام حكم ولا سلطان، فتفتح له الأبواب وتسهل له الأمور، بل ويعمل أفراد المجتمع على خدمته وراحته، هذا السلوك الحضاري وسع دائرة الطمع والاستغلال للرحالة الغربيين فقاموا بعمليات تجسس ونقل الكنوز المعرفية قبل المادية من تلك البلدان بحجة دراستها وإفادة الإنسانية منها، ولزيد من التوضيح يراجع مقال الدكتور(حيدر حاسم الرويعي) المعنون بـ: تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي من خلال كتابات الرحالة الأوربيين، المنشور بمجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد العاشر(10) العددان(3و4) سنة 2011 والذي بين فيه الكثير من تلك المسائل المتعلقة بالرحلات الغربية ومدى تغلغلها في الشرق العربي، وحجم الإفادات المادية التي حصلت للغرب بسبب تلك الرحلات، والشيء الواجب للذكر ومن باب العدل في القول والحكم أنه ليس كل الرحلات الغربية كانت بدافع استعماري ونهب لخيرات تلك البلدان.

الرحلة نص المثاقفة والتواصل الحضاري:

اعتمد الإنسان منذ القديم في تحقيق الثقافة والمعرفة والعلم وفي الاقتراب من الآخرين على وسائل للتواصل بدأت بسيطة وعادية وانتهت معقدة وصعبة، ومن تلك الوسائل التواصلية نجد الرحلة التي ولدت مع الإنسان ، فالولادة رحلة من ماء الرجل والمرأة إلى الرحم إلى مراحل التكون والتشكل إلى الخروج للوجود رحلة، والانتقال من طور لطور رحلة، والسعي لتحقيق الذات رحلة، ومع السعي تتشكل الرحلة الكبرى بالخروج من المؤلف لغير المؤلف، ومن مفارقة المؤلف والمعتاد إلى الغريب والعجيب، وفي محطات الحل والترحال يكتسب المرء ثقافة وعلومًا وعادات وتقاليد ولغات وصدقات ولما لا حتى عداوات، ولهذا كله عدت الرحلة من أيسر وأسهل وسائل الاتصال والتواصل الإنساني، بل ومن أنجحها وأجمعها في تحقيق ما يعرف بالمثاقفة والتواصل الحضاري بين الأفراد والأمم والشعوب، ولتدليل على كلامنا هذا نضرب أمثلة برحلات ابن بطوطة وابن جبير وغيرهما من الرحالة العرب في القديم والحديث ممن عرفونا على أمم ماضية كانت في عهدهم أو من قبلهم، أمم ربما لو أفنى الواحد منا عمره في التعرف إليها ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

القارئ لرحلة ابن جبير يلاحظ أن صاحبها امتاز بدقة الوصف لكل ما تقع عليه عينه، مستعينا في ذلك بطرق التعلم والبحث المنهجي محققا بذلك المعلومة الدقيقة والثقافة الصحيحة، فجدده في رحلته قبل أن يكتب عن شيء يقوم أولا بالتحري والأسئلة، ثم المشاركة في ما يستدعي ذلك، مختبرا ما يستحق الاختبار للتأكد من الأمر، فتراه داخل المسجد والكنيسة والمهرم، ويمر فوق الجسر، ويدخل الدور والمنازل العادية والقصور الشامخة... الخ كل ذلك عنده منهجا في كتابة رحلته بصدق وأمانة، فلا يكتب إلا ما عايشه وعايته، إن منهج ابن جبير في رحلته حقق التواصل الحضاري فقد اجتمع في رحلته بأمر وحضارات ربط بينها برابط الإنسانية والعلم والحقيقة، وحقق المتابعة بأن نقل ثقافات الأمم التي زارها دون تحيز أو تمميش لما لا يتماشى أو يتوافق وثقافته، فمن يقرأ الرحلة ينتقل بروحه وخياله لتلك الحضارات والثقافات، يقول ابن جبير واصفا قرية "قرية على ساحل البحر، أكثر بيوتها أخصاص، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين، وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف، ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر...و بها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكر أنه كان منزل حواء أم البشر صلى الله عليها عند توجهها إلى مكة، فبني ذلك المبنى عليه تشهيرا لبركته وفضله"⁽¹¹⁾، فهذا المقطع النصي يبين لنا كيف يتدرج ابن جبير في نقل المعلومة والربط الحضاري والتاريخي، فابتدأ بوصف فوتوغرافي دقيق لتلك القرية (والتي ذهب المؤرخون إلى أنها مدينة حدة) التي حل بها واصفا بيوتها وفنادقها، ومركزا على مواد البناء الممثلة في الخص والطين والحجارة، وفي تأقلم أهلها مع بيئتهم الحارة بأن جعلوا لبيوتهم سطوحا لتبرد بها ليلا، لينتقل بنا إلى معلم أثري تاريخي يحظى بالقداسة فهو منزل أمنا حواء في رحلتها إلى مكة، فقدم القبة دليل على قدم القرية، وبقاء قبة حواء والحفاظ عليها من عادات الزمن والإنسان جعل القرية مشهورة محسودة بين الأمم، وبذلك تحول منزل حواء إلى ملكية إنسانية لا يمنع من زيارته زائر مهما كان موطنه أو لونه أو لغته أو دينه، إن القرية بهذا المنزل التاريخي التراثي تحولت إلى وسيط ثقافي وإلى أداة تواصل حضاري، هذا الأمر لا يمكن أن ندركه إلا في رحاب أدب الرحلة.

إن تركيز الرحالة على وصف الأماكن لم يكن عرضا ولا عبثا، بل إدراكا منهم بأنك إذا وصفت المكان فأنت تصف الإنسان صانعه وساكنه، وكما قال (باشلار) إذ وصفت المكان فقد وصفت الإنسان، ووصف المكان يعطيك صورة دقيقة على نفسية ساكنه وعن ثقافته وعاداته وتاريخه ودينه ولسانه، وكل ذلك في أدب الرحلة.

لقد وصف ابن جبير في رحلته الأماكن المقدسة والمدنسة، فمن المقدسة وصف (البيت الحرام وكنيسة أنطاكية)، وفي كل منهما وجدنا ثقافة المجتمع وديانته وفلسفته في الحياة والعمارة، ومن الأماكن المدنسة وصف مدينة (مسينة) في جزيرة صقلية، ولندرك البعد الثقافي والحضاري للمكان المقدس والمدنس نقرأ أولا نصوص ابن جبير "البيت المحرم له أربعة أركان، وهو قريب من التبريع، ارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يقابل باب الصفا، وهو من الحجر الأسود إلى الركن اليماني تسع وعشرون ذراعا، وسائر الجوانب ثمان وعشرون بسبب انصباب السطح إلى الميزاب...."⁽¹²⁾، فالنص ينقل لنا وصفا دقيقا للبيت الحرام ولقاصديه ولما ارتبط به من قصص وأخبار، لكن ما يلاحظ أن ابن جبير ركز على صفة العلو والتبريع، وهما صفتان منحنا للبيت الحرام القداسة فالعلو رمز للرفعة والطهر، والشموخ، فكل داخل للبيت الحرام تغمره نفحات العلو فتحلق روحه في أجواء السماء حيث الصفاء والطهر والمترل الأول، وقد ربط ابن جبير العلو بالهواء والصفا، فالأول ماسح ومطهر ومنظف لكل الشوائب، وهو من المكونات المقدسة الأربعة للطبيعة، وهو الروح والحركة، وأما الصفا فهو من شعائر الله، وهو مرتبط بقصة السيدة هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام، والصفا ثقافة إسلامية، وأخرى عربية أسطورية عرفها عرب الجاهلية ومن كان يقصد البيت الحرام حجا أو تجارة أو سياحة في تلك العهود، إن الصفا بوصف ابن جبير تحول إلى وسيط ثقافي تواصل بين تلك الأمم والأزمنة، تلقي في الفواد الأحداث والذكريات، وتحرك النفحات الربانية في القلوب، فكل من يقف بالصفا تلتحم روحه مع روح عهد هاجر وإسماعيل عليهما السلام، باحثا على ماء الحياة، إنه الطهر والصفاء الروحي والإيمان الثابت، والتركيز على التبريع للبيت الحرام دلالة على الأمن والسكينة والاستقرار، فالأشكال المربعة توحى بالإحاطة والحماية، كما توحى بالحرمة والقداسة والطهارة لتلك الأحياز، وكما لا يخفى على أحد أن المربع من أبسط الأشكال الهندسية وأسهلها للتمثيل والتجسيد.

ومن الأمكنة المقدسة التي حظيت بوصف ابن جبير نجد كنيسة أنطاكية" كنيسة الأنطاكي أعجب مصانع الدنيا المزخرقة، جدرها الداخلة ذهب كلها، وفيها من ألواح الرخام الملون ما لم ير مثله قط، قد رصعت كلها بفصوص الذهب، وكللت بأشجار الفصوص الخضراء، ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج... صومعتها قامت على أعمدة سوار من الرخام ملونة، وعلت قبة على أخرى سوار كلها، فتعرف بصومعة السواري"⁽¹³⁾، مقارنة بوصف البيت الحرام نرى التركيز على الزخارف والمذهبات، فالغلو في كنيسة أنطاكية والاشتغال بهارج الحياة الدنيا ينعكس تماما على حياة أهلها وقاصديها، فالبدخ والتبذير والتعقيد في البناء والأشكال الهندسية بادية عليها بخلاف البيت الحرام حيث البساطة، الكنسية حملت الثقافة المادية والبيت الحرام حمل الثقافة الروحية.

ومن أمثلة الأمكنة المدنسة التي وصفها رحلة ابن جبير مدينة منسية بجزر صقلية والتي من أوصافها أنها: "موسم تجار الكفار، ومقصد حواري البحر من جميع الأقطار، وهي مظلمة الآفاق بالكفر مشحونة بعبدة الصلبان، مملوءة تننا ورجسا"⁽¹⁴⁾ فهذه المدينة تمثل المكان المدنس لما حوته من شرك بالله وإتيان للمعاصي والفجور، هذه صورة تقابلية للمكان المقدس بحسب ثقافة وهوية وديانة ابن جبير، وما تميزت به رحلة ابن جبير أنها دونت لتلك المظاهر الثقافية المادية وغير المادية في البلاد الإسلامية وغير الإسلامية مما جعلها بحق تكون وثيقة تثقيفية تعليمية من جهة، ومن جهة ثانية كانت حلقة ربط ووصل بين تلك الأمم والأجيال التي تعاصرت والتي جاءت من بعد، وبهذا يمكن القول بأن أدب الرحلة من أهم السبل المحققة للتواصل الحضاري والتعارف الإنساني.

كما تمثل (رحلة ابن بطوطة) مثالا جيدا على التواصل الثقافي والحضاري بين الشعوب والأمم والحضارات، وبخاصة أن صاحبها طاف بالكثير من البلدان وشاهد العديد من الأمور التي تدخل اليوم في مجال الدراسات الفولكلورية والتاريخية والجغرافية والأنتروبولوجية والإثنولوجية... الخ، فقد سجل عادات الشعوب وتقاليدها، وبين نظمها الاجتماعية والقانونية، وصور لنا عمراتها، وكشف عن أسرار نفوس أهلها" قد رصدت تنوع المعالم الحضارية في مختلف الجوانب الحياتية في البلدان التي قصدتها الرحالة، وعكست صورة واضحة عن أحوال الشعوب وعاداتها وتقاليدها...، وكشفت عن الانتماء إلى ثقافة الذات والفهم لثقافة الآخر والانفتاح عليه، مبرزة الترابط بين كل العناصر البشرية والثقافية في البلدان التي زارها الرحالة"⁽¹⁵⁾، فمن النصوص التي حملت لنا أبعادا ثقافية وكانت بمثابة الوسيط في التواصل الحضاري بين الأمم والشعوب نقرأ هذا المقطع النصي من رحلة ابن بطوطة" اعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس، أعظمها العادلية، وبها يحكم قاضي القضاة، وتقابلها المدرسة الظاهرية، وبها قبر الملك الظاهر، وبها جلوس نواب القاضي، ومن نوابه فخر الدين القبطي وكان والده من كتاب القبط وأسلم، ومنهم جمال الدين بن جملة، وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك، وعزل لأمر أوجب عزله."⁽¹⁶⁾، فمثل هذه النصوص التي حملتها الرحلة تكشف عن المستوى الثقافي والعلمي الذي كانت عليه حواضر الأمة العربية الإسلامية، كما تبرز لنا الحرص الشديد من الحكام والشعب على تحقيق الرقي الثقافي والعلمي في كل الميادين، ولا يقف الأمر عند المجتمعات العربية والإسلامية بل يتعداه إلى الأمم الأجنبية غير العربية، حيث كشفت نصوص رحلة ابن بطوطة عن عادات وتقاليد تلك الأمم " أمير خوارزم هو الأمير الكبير قطلو دمور، وقطلو " بضم القاف وسكون الطاء المهمل وضم اللام "، ودمور " بضم الدال المهمل والميم وواو مد وراء "، ومعنى اسمه الحديد المبارك. لأن قطلو هو المبارك ودمور هو الحديد. وهذا الأمير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك، وأكبر أمرائه، وهو واليه على خراسان. وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التي أمها الملكة طيطغلي المتقدم ذكرها، وأمرائه الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة.

ولما أتاني القاضي مسلماً علي كما ذكرته، قال لي: إن الأمير قد علم بقدمك، وبه بقية مرض يمنعه من الإتيان إليك. فركبت مع القاضي إلى زيارته وأتينا داره، فدخلنا مشوراً كبيراً أكثر بيوته خشب، ثم دخلنا مشوراً صغيراً فيه قبة خشب مزخرقة، قد كسيت حيطانها بالملف الملون، وسقفها بالحرير المذهب، والأمير على فرش له من الحرير، وقد غطي رجليه لما بهما من النقرس، وهي علة فاشية في الترك، فسلمت عليه، وأجلسني إلى جانبه، وقعد القاضي والفقهاء. وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك،

وعن الخاتون بيلون، وعن أبيها، وعن مدينة القسطنطينية، فأعلمته بذلك كله. ثم أتى بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوي والكرابي وأفراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكعك والخلوى، ثم أتى بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب في أواني الذهب والفضة، ومعه ملاعق الذهب. وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه ملاعق الخشب، ومن العنب والبطيخ العجيب. ومن عوائد هذا الأمير أن يأتي القاضي في كل يوم إلى مشوره، فيجلس بمجلس معد له ومعه الفقهاء وكتابه، ويجلس في مقابلة أحد الأمراء الكبار، ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم، يسمون الأرغجية " بارغوجي "، ويتحاكم الناس إليهم. فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي، وما كان من سواها حكم فيها أولئك الأمراء. وأحكامهم مضبوطة عادلة. لأنهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة، ولما عدنا إلى المدرسة بعد الجلوس مع الأمير بعث إلينا الأرز والدقيق والسمن والأبزار وأحمال الحطب. وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم، وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم. وأما الصين فيفقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في الفحم، ثم إذا صارت رماداً عجنوه بالماء وحففوه بالشمس وطبخوا بها ثانية كذلك حتى يتلاشى. حكاية ومكرمة لهذا القاضي والأمير⁽¹⁷⁾، عن هذا النص المتقل بذكر العادات والتقاليد لأمر خوارزم يدخل تحت حكمه وفي قصره، وبهذا الوصف الدقيق والمضبوط ينقل لنا الحياة الثقافية والاجتماعية والعلمية والسياسية واليومية لأهل خوارزم عموماً وسادتها على وجه الخصوص، وهي أخبار ومعلومات لا يمكننا العثور عليها بمثل تلك الدقة في غير كتب الرحلات، وهذا نص آخر من رحلة ابن بطوطة يبين من خلاله عظمة وقوة سلطان بلاد ما وراء النهر فيقول: " وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين " وضبط اسمه بفتح الطاء المهمل وسكون الراء وفتح الراء وكسر الشين المعجم وياء مد وراء مكسور وياء مد ثانية ونون "، وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم، وبلاده متوسطه بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار، وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق والملك أوزبك. وكلهم يهابونه، ويعظمونه ويكرمونه. وولي الملك بعد أخيه الجكطي " وضبط اسمه بفتح الجيم المعقودة له الكاف والطاء المهمل وسكون الياء ". وكان الجكطي هذا كافراً، وولي بعد أخيه الأكبر كبك، وكان كبك هذا كافراً أيضاً، لكنه كان عادل الحكم منصفاً للمظلومين، يكرم المسلمين ويعظمهم.⁽¹⁸⁾ إننا لو تتبعنا رحلتي ابن بطوطة وابن جبير تتبعاً خطياً وفق قراءة أفقية مسحية لما كفانا الوقت لتبيين كل مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمعات والبلدان التي حلا بها، كما أنه لا تكفي لإظهار ملامح التواصل الاجتماعي ووسائطه المختلفة والمتنوعة والمتعددة، وقد تسمح لنا فرصاً علمية أخرى لبسط الموضوع أكثر والتدقيق فيه بما يحقق المتبعي، وما أمكننا التحقق منه في هذا المجال أن الرحالة العرب لما نقلوا ثقافات وعلوم الأمم إنما نقلوها من باب التعريف بالآخر لفهمه فهما صحيحاً وفق مفهوم البناء الحضاري للإنسانية بغض النظر عن لغتها أو لونها أو دينها أو نمط حكمها، وهذا ما لمسناه في رحلة الطهطاوي (تلخيص الإبريز في محاسن باريس)، و(الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية) للفاسي، وهي الرحلة التي دونت لنا أثر الثقافة الغربية في الإنسان المغربي على وجه الخصوص والعربي على وجه العموم" وهي إحدى الرحلات الأولى التي سجلت اتصال المغرب بالحضارة الحديثة الأوروبية قبل أن تنتشر معالم هذه المدنية باختراعاتها المبنية على الطاقات الجديدة، من بخار وكهرباء واستعمالها في آلات كثيرة متنوعة في وقت كان المغرب لا يعرف عن هذا الانقلاب الجديد شيئاً⁽¹⁹⁾، وهذا النص يؤكد ما جاء في الرحلة على لسان صاحبها من وصف دقيق لكل ما وقعت عليه عينه وبخاصة في قصر الملكة أو من عروض عسكرية وقصور وحديقة للحيوان....وقد أتبع صاحب الرحلة كل وصف لموضوع ما بحكاية سماها (غريبة) نقل فيها ما لم تقع عليه عينه من قبل وكان بالنسبة إليه مدهشاً وحديداً من ذلك مثلاً قوله " غريبة: رأيت حيواناً عظيماً على هيئة الزرافة يسمى عندهم - باللين - له احد عشر قرناً صاعدة في الجو مثل الشجرة، وحيواناً آخر على هيئة الغزال له أولاد صغار يدخلون في غلاف لازق بطنها، فإذا مرت دخلن في ذلك الحبل ولا يظهرن، والحاصل إن في هذا البستان من الحيوانات العظام وغيرها من صنوف الطير وضروب الحيتان من البلاد النائية والحل المختلفة ما لا يحصى كثرة، ولو حاول الإنسان إحصاءه مرة بعد المرة وتعريف كل على حدته واسمه لكان مما يعسر ويستدعي

طولا كثيرا، ومنها ما عرفناه ومنها ما لم نعرفه، ولعل الدميري في حياة الحيوان يلهم بأسمائها وبيئاتها وبخواصها والله أعلم⁽²⁰⁾، وفي مقام حديثه عن التصنيع ينقل لنا وصفا لمصانع الأسلحة فيقول "ثم بعد هذا بأيام ذهبنا لفبركة المدفع والكور والبنب والحخيف والحبة وانطكيات وكراريت، المدفع من الحديد والعود، وأدخلونا لمحال عديدة بقرب هذه الفبركة..."⁽²¹⁾ هذا المتبغى هو الذي حقق التواصل الثقافي لأن "التواصل بنجاح عبر الثقافات يقتضي منك القدرة على توقع تلك الاختلافات كي تكون على استعداد لردم الهوة الثقافية"⁽²²⁾؛ ولأن أصعب وأخطر مظاهر التواصل بين الأمم هو التواصل الثقافي لاحظنا كيف اهتم الرحالة العرب قديما وحديثا بهذا المجال، فمعرفة الآخر لا تتم ولا تنتهي إلا بالتقارب الثقافي الممهّد والمسهل لكل تقارب وتواصل بعد ذلك، فالثقافة هي روح الأمم وصورها الحقّة متجلية فيها، ولأن الأمر إنساني فقد وجدنا من الرحالة الغربيين من ساهم في إحداث ذلك التواصل الثقافي والتقارب الحضاري بين الأمة العربية والغربية، ولن نتحدث هنا عن النوايا والمقاصد المختلفة والمتنوعة للرحالة الغربيين، فالموضوع ذكرناه في أسباب ظهور الرحلة، وفصل فيها أهل الاختصاص بما يشفي الغليل ويحقق المقصود، لذا نبحت بعض مظاهر التواصل الثقافي وفق وسائل الاتصال في أدب الرحلة كما فهمها وقدمها الرحالة الغربيين.

فرحلة العالم الألماني (هابنسترايت) إلى الجزائر وتونس وطرابلس، ورحلة (مونتاسكيو) للجزائر وتحديدًا لمدينة عنابة بالشرق الجزائري، من أوضح الرحلات التي حققت أهدافها ليس السياحية فقط بل والعلمية والثقافية ولما لا حتى السياسية، فهذا الرحالة (هابنسترايت) بعدما وصف رحلته في البحر ونزوله ضيفا على داي الجزائر، يضيف لنا موضحا هدفه من الرحلة فيقول: "لقد سنحت لي الفرصة أثناء رحلتي هذه أن أعرف على سلوك وعادات هذه البلاد، وهذا ما سوف أعرضه فيما يلي من أجل تصحيح معلومات مارمول ودابير وتاسي فيما كتبه عن مملكة الجزائر، فمدينة الجزائر عاصمة المملكة التي تحمل اسمها، والتي عرفت في الماضي باسم موريطانيا القيصرية، كما كانت تعرف في الماضي أيضا بمملكة فاس باسم موريطانيا الطنجية، وهذه البلاد-مملكة الجزائر- تعرف عادة لدى الكتاب الأوروبيين بـ *Barbarie* أو البلاد المتوحشة، وحسب دلالة هذه الكلمة أنها فأما تعني أنها مأهولة بأشخاص متوحشين وشرسين، وهذا ما نعتبره منافيا للحقيقة إذ يجب أن ينصف القسم الأكبر من سكان هذه البلاد، فهم أفراد بعيدون عن التوحش، يقدرّون الأجانب ولهم رغبة ملحّة في التعاون معهم، فلفظ المتبربرين أو البرابرة يراد به سكان الصحراء، أو أنه مقتبس من الإغريق أو الرومان الذين كانوا يطلقون على كل الشعوب الذين لا يتكلمون لغتهم هذه التسمية"⁽²³⁾، ومن النصوص التي وضحت الرحلة وبيّنت بجلاء ذلك التواصل الثقافي والحضاري بين المسلمين من سكان الجزائر واليهود والأسرى المسيحيين الأوروبيين نجد "أما الأسرى الأوروبيين وأغلبهم من الإسبان والبرتغاليين والإيطاليين والألمان، فإن عددهم قليل جدا بمدينة الجزائر، وهم عادة ما يحظون باحترام الأتراك ويكونون في حماية إحدى الدول الأوروبية التي تكون في حالة سلم مع حكومة الداى، هذا وتتكفل البعثة الفرنسية برعاية رجلي دين من الرهبان (*les pères*) أحدهما يحمل لقب المبعوث الرسولي لكل من تونس وطرابلس والجزائر (*Vicaire Apostolique*)، أما المستشفى الإسباني فيسيره متصرف ويساعده أحد رجال الدين (الآباء) المنتميين لسلك رهبنة عتق الأسرى (*Ordre de la Rédemption*) وهو يقوم بأعمال خير حمة لفائدة جميع الأسرى ويلحق به جراح (*chirurgien*) وصيدلي (*apothicaire*) يقومان بمعالجة المرضى"⁽²⁴⁾، فهذا التسامح ما كان ليعلمه الناس لو لا هذه الرحلة المنصّفة في حق سكان بلاد المغرب العربي من جزائريين وتونسيين وليبيين ومغاربة، وما دام الأمر منطبع في السكان فكذلك متجلي في الحكام، ومن مظاهر التواصل الثقافي والحضاري ما نقلته لنا الرحلة على لسان صاحبها مستخدما وسيلة التواصل والانتقال ألا وهي السفينة، حيث كلما حل بمدينة ساحلية إلا وأظهر عادات وتقاليد أهلها مبرزا حياتهم اليومية دون تكلف أو مغالاة، ولهذا صحح (هابنسترايت) ما قيل وكتب عن سكان هذه المناطق بمنطق الغلو والعداء والكره الناتج عن الحروب الدائرة بين أهل المنطقة والأوروبيين الغزاة، ومن تلك المظاهر الثقافية والمتحوّلة إلى تقليد وعادة عند سكان الجزائر أن المساحد تبقى مفتوحة طوال اليوم

وعند الآذان توضع رايات مختلفة كل لون راية يدل على وقت صلاة معينة " وهذه المساجد تظل مفتوحة طيلة اليوم لأداء الصلوات، وتقام خمس صلوات في اليوم والليل، وبواسطتها يمكن تقسيم اليوم فيقال ساعة آذان الصباح والظهر والعصر، أي وقت الصباح ومنتصف النهار والمساء؛ لأن في هذه الأوقات يرفع الآذان من المنارات إيدانا بحلول وقت الصلاة، ففي آذان الظهر يعلق فوق المنارة علم أبيض، وبعد منتصف النهار(العصر) يعلق علم أخضر ولهذا يسمونه بانتيرا نيفا (*panthera niva*) أي ساعة نشر علم السفينة، وفي المساء بانتيرا أباسا (*panthera abassa*) أو ساعة طي العلم⁽²⁵⁾، وبهذا انتقلت عادة رفع العلم على المنارة إلى البحارة، ويكاد ينسى أصل مبعثها الأول الإشعار بدخول وقت الصلاة، ومن مظاهر الحياة الاجتماعية ببعدها التراثي والثقافي والديني نجد هذا النص من الرحلة " أغلب العادات التي يمارسها الجزائريون تستند في أساسها إلى قوانين، وليس فيها ما يفاجئ الأوربي كغياب النساء عن الحياة العامة واحتشامهن الشديد، فلا يسرن في الأزقة بدون حجاب، وحتى منازلهن تكاد أشعة الشمس لا تصل إليها، وعندما يسافرن على ظهور البغال يكن مختبات في ستائر غريبة، وقد ترجاني أحد الأتراك من ذوي المكانة المتميزة أن أعالج زوجته، وعندما طلبت منه أن أرى المريضة أجابني من الأفضل أن تموت من أن يراها أحد.

والجزائريون من أتباع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الغيورين ويستهنون المتشيعين لعلي(ض) ويقومون في الغالب بالحج إلى مكة المكرمة، وبعد أداء هذه الفريضة يرتدون الألبسة الخضراء التي تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو اللباس الذي يميز الأشراف الذين يدعون بأنهم من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم⁽²⁶⁾، ومن مظاهر التواصل بوسائط الطبيعة ممثلة في النباتات أن أهالي الجزائر إذا شاهدوا غريبا وعادة ما يكون أوربيا يحمل أزهارا أو نباتات لا يعترضون سبيله بل يحترمونه ويجلونه فهو عندهم الباربرو؛ أي المعالج بالأعشاب " وقد لاحظت أن حمل باقة من النباتات في اليد هو بمثابة جواز مرور معروف ووسيلة ممتازة لضمان السلامة؛ لأن من يذهب للبحث عن النباتات ينظر إليه هناك إلى أنه متطيب أو مداوي بالأعشاب ويطلقون عليه اسم الباربرو، أو الحلاق وهو الاسم الذي يعرف به الطبيب الذي يحظى لديهم بكل احترام وتقدير لمهنته هذه⁽²⁷⁾، من خلال هذا النص تظهر لنا طرق التواصل الاجتماعي والمهني بين الناس، فحملك لباقة من النبات تضمن لك الحياة في وقت كثر فيه المهرج والاعتداءات من الأوربيين وبخاصة الإسبان على الجزائريين، قد تكون تلك الباقة لغة تواصلية إشارية وسيميولوجية بامتياز تحقق ما يعجز اللسان عن تحقيقه أحيانا وفي حالات معينة، والحقيقة أن نصوص الرحلة فيها الكثير من الرموز اللغوية والإشارية المحققة للتواصل ما يمكنها أن تكون مجال بحث وموضوع دراسة.

إن الصورة الحسنة التي نقلتها نصوص الرحلة عامة و الألمانية بخاصة تؤكد أن الشعوب والأمم يمكنها أن تلتقي في أكثر من مكون ثقافي وعلمي، وأن الاختلاط بالناس وعمايشتهم أفضل طريقة وأبجح منهج في تحقيق التواصل والتقارب بين الأمم والشعوب، ومن نجاح في هذا هو ذلك الذي احترم ثقافة ولغة ودين وجنس وتاريخ غيره " إذا أردت أن تقدم نفسك كمواطن عالم وأن تعمل بفاعلية عبر الحدود الثقافية، فلا بد أن تكون قادرا على إظهار الاحترام لتقاليد الآخرين وعاداتهم وشعائرهم⁽²⁸⁾، وهذا ما نعتقد أن الرحالة العرب والغربيين عموما قد وفقوا فيه.

الخاتمة:

في خاتمة هذا البحث يمكننا أن نذكر ببعض الحقائق المعرفية والنتائج العلمية التي تم ذكرها في صفحات عملنا هذا، فمن تلك النتائج:

- يمثل أدب الرحلة وثيقة هامة لعلماء التاريخ والجغرافيا، وعلماء الاجتماع والأدب* والسياسة؛ فهو الفن-أدب الرحلة- الذي لا تستغني عنه أغلب العلوم والفنون مهما علا شأنها أو نزل.

- يهتم أدب الرحلة في تأريخه للمجتمعات والأمم بالفئات المهمشة والفقيرة* والمركونة في زوايا المجتمعات التي تمثل المركز، وهو بذلك-أدب الرحلة- يتجاوز الكتابة التاريخية والأدبية والسياسية والحضارية، التي في عمومها تركز على المركز دون الهامش وعلى الفئات الغنية والقوية والحاكمة دون الفئات الفقيرة والمحكومة.

- تميزت الكثير من كتب الرحلات ببساطة أسلوبها والابتعاد عن المغالاة في اللغة* الإبداعية المتعقبة التي يصعب على الناس فهمها، فكانت لغتها تخرج بين الفصحى والعامية- اللهجات- وبين البليغ والعادي، ومرد هذا الأمر حرص الرحالة على تسجيل المعلومات والصور السلوكية بلغة واقعا وبلسان حالها.

- تمثل نصوص الرحلة نصوصا ثابتة نهائية منغلقة لا منفتحة لا تحتاج إلى* التنقيح وإعادة الكتابة والمراجعة كما هو الشأن في النصوص الإبداعية الأدبية أو في نصوص التاريخ وغيرهما؛ ذلك لأن نصوص الرحلات كتبت في أغلبها بعد عودة أصحابها للديار، وما كتب في زمن الرحلة كتب بعد الاستقرار في المكان المرتحل إليه، وهذا العمل قلما وقع مقارنة بالحالة الأولى.

- ألقت كتب الرحلة لأسباب عامة وأخرى خاصة، فمنها ما دون لتحقيق مصلحة* ذاتية خاصة ومثل ذلك (رحلة ابن جبير)، أو بطلب من الأصدقاء، أو بأمر من أحد الملوك أو الحكام أو الولاة.

- القيمة العلمية والفنية لأدب الرحلات تجلّى في نقله للمعارف والثقافات المختلفة* والمتنوعة، والتطرق لبعضها بالتحليل والوصف بما لم يتحقق لبعض العلوم والمعرف كالناريخ والجغرافيا، فالرحلات" أعطت كل ذلك بعده المناسب، وتطرق إلى تحليل جوانب لم تتطرق إلى تحليلها الوثائق التاريخية، فقامت الرحلات بوضع كل ذلك في دائرة الإشعاع التي توجه إليها لاستجلاء الواقع وإخراج التاريخ عن حدوده الضيقة"⁽²⁹⁾.

- أما القيمة الأدبية لأدب الرحلات فهي تكمن في ثراء نصوصه بأشكال التعبير* المختلفة، والشواهد الأدبية من شعر ونثر، وقرآن وحديث، وحكم وأمثال... الخ فأدب الرحلة يحفل بالكثير من" الأساطير والخرافات وبعض المحسنات البلاغية، وجمال اللفظ وحسن التعبير، وارتقاء الوصف وبلوغه حدا كبيرا من الدقة علاوة على ما يستعين به- أحيانا- من أسلوب قصصي سلس مشرق، وهذا الذي يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرحلة ضمن فنون الدب العربي"⁽³⁰⁾.

إن الرحلة العربية والغربية انطلقت في أصلها من جوهر الإنسان المتطلع للكمال، ومن حرقه السؤال ونشوة الجواب، من ضيق الصدر وعتمة الهموم إلى سعة الدنيا ونور المكان، الرحلة بقدر ما ارتبطت بالذات فإنها عرجت على الآخر، وبقدر ما انحازت في التحليل والتفسير لثقافة الانتماء والهوية وحدود الجغرافيا الخارجة منها بقدر كشفت لنا عن زوايا الرؤيا المختلفة وعن وجهات النظر المتعددة، وهنا فقط نقول: إن الرحلة أكدت لنا مسلمة علمية مفادها أن الأمم كما تختلف ألوانها وألوانها ودياناتها فإنها كذلك تختلف عاداتها وتقاليدها، ولكنها تبقى تبحث عن التواصل والامتداد بين بعضها بعضا محققة قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁽³¹⁾.

والرحلة بعد كل هذا أداة للتواصل والتقارب ومطية للرفي بالإنسانية واكتسابها تلك الصفة- الإنسانية - في منظومة اجتماعية وسياسية ودينية واقتصادية وأدبية مكلفة ومجلفة بالحضارة الإنسانية.

مصادر ومراجع الدراسة:

القرآن الكريم ، برواية حفص، مجمع خادام الحرمين الشريفين الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

المصادر:

- 1 - محمد بن أحمد بن جبير الكنايني الأندلسي، أبو الحسين: رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، د ط، د ت.
- 2- أبو عبد الله بن محمد اللواتي المعروف بابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة بتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، سلسلة الأنيس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية(موفم) الرغاية، الجزائر، د ط، د ت.

- 3- أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمان الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الأنجلزية-1276هـ/1860م-، حققه وعلق عليه الأستاذ محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس المملكة المغربية، ط1، 1967م.
- 4- رحلة العالم الألماني: ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس-1145هـ/1732م، ترجمة وتقديم وتعليق الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، د ط، د ت.

المراجع:

- 1- دون. و. برنس، ومايكل. هـ. هوب: التواصل عبر الثقافات، نقله إلى العربية شكري مجاهد، العبيكان للنشر، المملكة العربية السعودية، ط1، 2009م.
- 2- سيد حامد النساخ: مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب القاهرة، مصر، د ط، د ت.
- 3 _ صلاح الشامسي: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، منشأة المعارف الإسكندرية، د ط 1999،
- 4_ عمر بن قينة: الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق سوريا، د ط، د ت
- 5_ عبد الفتاح محمد وهيبه: جغرافية المسعودي بين النظرية والتطبيق، من الأدب الجغرافي في التراث العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د ط، 1995
- 6_ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، مدينة نصر، القاهرة، مصر، ط 2، 2002م
- 7_ ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، تحقيق محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، د ط، د ت،
- 8_ محمد بن إدريس (الإمام الشافعي): ديوان الإمام الشافعي المسمى الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس، إعداد وتعليق وتقديم محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، مصر، د ط، د ت
- 9- محمد بن عيسى بن سورة الترمذي: الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق أحمد بن محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، د ت
- 10- نوال عبد الرحمان الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط1، 2008م.

الهوامش

- 1_ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، مدينة نصر، القاهرة، مصر، ط2، 2002م، ص19
- 2_ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي: الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق أحمد بن محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، د ت، ص: 2687
- 3_ محمد بن إدريس (الإمام الشافعي): ديوان الإمام الشافعي المسمى الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس، إعداد وتعليق وتقديم محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، مصر، د ط، د ت، ص: 25
- 4_ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص: 21
- 5_ صلاح الشامسي: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، منشأة المعارف الإسكندرية، د ط، 1999، ص02
- 6_ سورة الحجرات الآية: 13
- 7_ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص: 22
- 8_ عبد الفتاح محمد وهيبه: جغرافية المسعودي بين النظرية والتطبيق، من الأدب الجغرافي في التراث العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د ط، 1995، ص: 15
- 9_ ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، تحقيق محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، د ط، د ت، ص: 75
- 10_ عمر بن قينة: الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، د ط، د ت، ص: 07

- 11- محمد بن أحمد بن جبير الكنايني الأندلسي، أبو الحسين: رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، د ط، د ت، ص
- ص:45،46
- 12 - رحلة ابن جبير، ص52 إلى ص 79
- 13 - رحلة ابن جبير، ص: 308
- 14 - م ن ، ص: 297
- 15 - نوال عبد الرحمان الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط1، 2008، ص:317
- أبو عبد الله بن محمد اللاواقي المعروف بابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة بتحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، سلسلة الأنيس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية (موفم) الرغاية، الجزائر، د ط، د ت رحلة ابن بطوطة، الفصل الأول، ذكر مدارس دمشق، ص:34
- 16
- 17 - رحلة ابن بطوطة، الجزء الثاني، ذكر أمير خوارزم، ص:127
- 18 - م ن ، ذكر ملك ما وراء النهرين، ص:131
- 19 - أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمان الفاسي، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية-1276هـ/1860م-، حققه وعلق عليه الأستاذ محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس المملكة المغربية، ط1، 1967، ص:أ
- 20 - م ن ، ص ص:22،23
- 21 - م ن ، ص: 23
- 22- دون و برنس، و مايكل هـ هوب: التواصل عبر الثقافات، نقله إلى العربية شكري مجاهد، العبيكان للنشر، المملكة العربية السعودية، ط1، 2009، ص:12
- رحلة العالم الألماني: ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس-1145هـ/1732م، ترجمة وتقديم وتعليق الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، د ط، د ت، ص:25
- 23
- 24 - رحلة العالم الألماني: ج.أو. هابنسترايت، ص: 34
- 25 - م ن ، ص:38
- 26 - م ن ، ص: 47
- 27 - م ن ، ص: 56
- 28 - دون.و. برنس، و مايكل.هـ. هوب، التواصل عبر الثقافات، نقله إلى العربية شكري مجاهد، ص ص: 38،39
- 29 - نوال عبد الرحمان الشوابكة: الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص:52
- 30 - سيد حامد النساخ:مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، د ط، د ت، ص:08
- 31 - سورة الحجرات، الآية:13